سلسلة مقالات الأنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكي

٢

شفاء الأعرج

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

www.Saint-Mary.net

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس
البطريرك الانطاكي

٢

شفاء الأعرج

الحقوق محفوظة

المقال رقم ٧٤ مترجم عن الفرنسية من الكتاب السادس عشر من مجموعة :

Patrologia Orientales R. Graffin – F. Nau
Les Homélies Cathédrales de Sévère d' Antioche
Homélie LXXIV
publiée par N. A. Kugener & Edg. Triffaux

مقدمة

من أفضل ما قيل فى معجزة شفاء الأعرج ذلك المقال النفيس الذى ألقاه القديس أنبا ساويرس الأنطاكى - فى القرن السادس - على جماعة المؤمنين فى يوم الجمعة من الأسبوع الذى يلى عيد العنصرة ، وهو يتضمن شرح ما ورد فى سفر أعمال الرسل ص ٣ : ١ - ١٦ حيث ذكر : « وصعد بطرس ويوحنا معاً الى الهيكل فى ساعة الصلاة التاسعة ، وكان رجل أعرج من بطن أمه يحمل ، كانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذى يقال له الجميل ليسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل ، فهذا لما رأى بطرس ويوحنا مزمعين أن يدخلا الهيكل سأل ليأخذ صدقة ، فتفرس فيه بطرس مع يوحنا وقال أنظر إلينا ، فلاحظهما منتظراً أن يأخذ منهما شيئاً ، فقال بطرس ليس لى فضة ولا ذهب ولكن الذى لى فإياه أعطيك . باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش ، وامسكه بيده اليمنى وأقامه ففى الحال تشددت رجلاه وكعباه ، فوثب ووقف وصار يمشى ودخل معهما الى الهيكل وهو يمشى ويطفر ويسبح الله ... » .

وقد بدأنا السلسلة بمقال للقديس عن ظهور السيد المسيح للمريمات ، وسنوالى تباعاً نشر مقالات هذا الأب القيمة ولإلهنا المجد دائماً أبدياً آمين ؟

١٩٦٩

المقال الرابع والسبعون

هذا المقال عن معجزة شفاء الأعرج من بطن أمه على يد الرسولين بطرس ويوحنا ، تلى يوم الجمعة من الأسبوع الذى يلى عيد العنصرة ، حيث كان صوم كالمعتاد ، وهو قراءة من أعمال الرسل ص ٣ : ١ - ١٦ .

يقول القديس ساويرس

بعد أن نصعد إلى الهيكل مع بطرس ويوحنا وقت صلاة الساعة التاسعة أفنسكت ؟ وهلا يبكتنا ذلك الرجل الأعرج على صمتنا إذا لم نحدث ؟ . إنه يقفز ناطقاً بمجد الله بعد أن كان لا يستطيع الى حين أن يمشى برجليه ، إذ كان آخرون يحملونه !! وضعوه عند باب الجميل ، وكان جميلا حقاً حينما كان يصرخ قائلا : إن الصلاة المقترنة بالصدقة ودخول الهياكل جميلة وغالية فى عينى الله وتظهر جلياً ، وهى طريق الداخلين عند الرب . كما أن الصلاة التى تنقصها المحبة ، وكأنما الظلام يسترها تجعل حركة الأقدام بلا فائدة . فتجعلها تخطو خطوات غير ثابتة ومترددة ، حتى ولو كان السارى مزيناً بكل الفضائل الأخرى أو محملا بالبتولية .

هذا ما يرمز إليه مثل الخمس عذارى الجاهلات ، اللاتى كن مستنيرات بالجمال المتألق الذى للطهارة ، ولكنهن من ناحية نقص المحبة فكأنهن منطفئات ومظلمات ولم يدخلن مع العريس ، بل كان باب الغرفة الروحانية مغلقاً أمامهن .

لذلك كان ذلك الرجل الأعرج يطلب أيضاً من الرسولين بطرس ويوحنا أن يقدما له معونة من هذا النوع ، وفى ذلك إشارة إلى ان الشفقة والمحبة نحو المحتاجين ضروريتان حتى يعمل وفق ذلك المصلون بالحق إذا ما بدأوا الصلاة . فإذا كنتم قد حضرتم إلى هنا باستعداد مسائل أو كنتم مددتم يد المساعدة والمحبة للفقراء ، فقد صعدتم بالحقيقة إلى الباب الجميل ولم تكذبوا بهذا الصعود . لأنه حتى الرسول بطرس لم يكن ليقول : « ليس لى فضة ولا ذهب » أع ٣ : ٦ ، وهو يرفض طلب الأعرج دون أن يكون قد تجرد أولا . وما عنده كان ينحصر فى بعض الشباك ومركب صغير وبعض عصى الصيد . كان يقول للرب يسوع : « ها نحن قد تركنا كل شىء وتبعناك » مت ١٩ : ٢٧ . لأن من لا يملك سوى الفتر اليسير مطالب أيضاً أن يمد يده إلى الفقير قدر استطاعته .

فلا يقول أحد : « إنى لا أستطيع أن أعانى الحاجة والحرمان وأعمد إلى التشدد » .

حتى فى الشدة والضيق بسبب حاجتك فأنت لم تشتط عن الصواب فإن « ملكوت السموات يغصب والغاصبون يخطفونه » مت ١١ : ١٢ .

انك لا تكثر فهماً إذا اشتريت بقليل من المعاناة أملاكا من هذا القبيل ، ومن ينله شىء من هذا فليأخذ فى الاعتبار أنه سوف يمنح العزاء بدلا منه ، وسوف يعوض بفرص غنية للحياة الحسنة ، لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة التى أظهرتموها نحو إسمه ، عب ٦ : ١٠ .

هذا ما ينادى به بولس الرسول فى بعض رسائله ، وأنت ذاتك حينما ترى خادمك يبذل مجهوداً يفوق قوته لكى ينفذ بالتمام أوامرك ، أفلا تبحث عن وسيلة تكفل له راحته كشخص متعب ؟ فإذا كان الأمر متعلقاً بالله ، أفتظن أنه يهمل خليقته التى خلقها عند الحرج .

وتبعاً للقانون الذى وضعه على الناس أن يشركوا المحتاج فيما يملكون يقول : « أطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم » مت ٦ : ٣٣ ، وأيضاً : « لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه » مت ٦ : ٨ .

فى الواقع إن كان أحد ينسى هذه الكلمات ولا يقتنع بقول

الكتاب ، ألقِ على الرب همك وهو يعولك، فيقدر إحتياجاته كما يشاء ، ويحتج بكثرة أبواب الصرف ، ويحسب أن ما يملكه قليل ، ويشتهي امتلاك ما ليس له ويهمل الفقير ، فيجب أن يعرف جيداً أن واجبنا الأول أن نقدس حاجة الفقير قبل احتياجاتنا . بذلك نكون غير غاشين مخادعين فى وصية الله . لهذا السبب أعتبر السيد فلسي الأرملة تقدمة عظيمة ، لأنها مسّت حاجة تلك التى أعطتهما ، فقد أعطت فعلاً كل معيشتها التى كانت عبارة عن هذين الفلسين .

ومع ذلك لم يكتفِ الرسول بالقول « ليس لى ذهب أو فضة ، لكنه أضاف « ولكن الذى لى فإياه أعطيك » أع ٣: ٦، معلناً بذلك أنه يلزم أن نعطى للمحتاجين مما لنا ، سواء أكان شيئاً مادياً أو غير مادى وأنه يلزم أن ننظر إلى ما نملكه أنه ليس ملكية شخصية ، بل كأنه ملكية مشتركة . وإنه يلزم لمن يعطى أن يفكر ثم يتدبر قائلا : « وأى شيء لك لم تأخذه » ١ كو ٤ : ٧ .

بهذا الفكر أيضاً كان بطرس الرسول نفسه يحذر البعض حينما كتب : « ليكن كل واحد بحسب ما أخذ موهبة يخدم بها بعضكم بعضاً كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوعة . إن كان

يتكلم أحد فكأقوال الله . وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله » (١ بط ٤ : ١٠ - ١١) .

إن دروساً كثيرة يعطينا إياها ذلك الرجل الأعرج . ألا يجب أن نتعمق فى الدراسة أكثر ؟ .

إن الرجل الأعرج لا يدعى أصمت . . . حينما دخل إلى الهيكل وهو يجرى ويقفز ، يجذب فكرى إلى التأمل الروحانى العميق لأن الأحداث التى وقعت تحتوى فى ذاتها على غنى الحكمة المستتر الذى يفوق كل فهم . ومن يفحصها - ما أستطاع إلى ذلك سبيلا - تصبح أفكاره كلها أسيرة لطاعة المسيح كما يقول بولس الرسول : « ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح » ٢ كو ١٠ : ٥ .

ويعتبر ذلك الرجل الأعرج ، فى الواقع ، صورة لكل البشرية ، للكنيسة التى اجتمعت وإنفصلت من بين الأمم الذين لا يعرفون الله ، أولئك الذين لا رجاء لهم (١ تس ٤ : ١٣)، كما هو مكتوب . فبينما كانت ميتة أحياها المسيح الذى بموته كسر ذاك الذى كان له سلطان الموت . فبينما كانت مشلولة من ناحية أعمال البر وعاجزة تماماً عن المشى كأنها مسمرة وموثقة بالسلاسل ، بعبادة الأوثان وعادات القدماء ، وكانت كإمرأة

نجسة تقف خارج الهيكل أقامها الرسل القديسون إذ مدوا إليها يد التعليم . لم يعطوها ذهباً أو فضة ، وكان فيها مفتوحاً فامتلأت عجباً . . .

ان الرسل فتحوا لها باب الجيل على آخره، الذى هو يسوع. مزين « وأبرع جمالا من بنى البشر » ، كما يقول النبى عنه ، يجعل المؤمنون يدخلون ، دخولهم كما من باب ، حتى إلى معرفة ذاته ومعرفة أبيه ، صارخاً أيضاً فى الأناجيل « أنا هو الباب . إن دخل بى أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى» يو ١٠ : ٩.

ولننظر كيف أن بطرس ويوحنا والرسل الآخرين أقاموا الكنيسة على مثال هذا الأعرج : كانت الكنيسة قديماً تعرج بنفس الطريقة فيما يختص بمعرفة الله ، ومن بطن أمها كانت مشلولة بالخطية بسبب تعدى آدم وحواء ، وكانت تقول : « هأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بى أمى » مز ٥١ : ٥ .

ماذا قال لهما إذن بطرس ويوحنا حينما كانت تعرج ومع ذلك كانت تطلب أن تأخذ صدقة ؟ قالا : « أنظر إلينا » أع ٣ : ٤ . فيما يختص بالتعليم والصحة التى تتدفق منها ، والاستقامة الجديدة ، يقول الرسل القديسون ، يكفيك فقط أن تنظرى إلينا ، نحن بالحقيقة الذين بعد أن تركنا كل شىء وبعد

أن حملنا الصليب قد تبعنا المشرع ، المسيح ، الذى كان يقول لنا بطريقة سامية جداً تليق بالله : « قوموا نتطلق من ههنا » يو ١٤ : ٣١، فى الوقت الذى كنا فيه مثقلين بالنعاس وأغرقنا فى نوم عميق ، وكنا هكذا منحنين إلى الأرض ، كان السيد له المجد يستعد للآلام الخلاصية .

كان الرب يسوع المسيح يعرف أن له إصعاد كل الناس إلى السماء معه . لذلك كان يقول أيضاً : « وأنا ان ارتفعت عن الأرض أجذب إلىّ الجميع » يو ١٢ : ٣٢ .

أيتها العرجاء : أتركى إذن ، أمام النقوى ، **الفضة والذهب** : الأصنام وعبادات الأمم ، لأن أصنام الأمم هى من الفضة والذهب وهى أعمال أيدى البشر . إن لك رجلين ولا تستطيعين المشى ، وفى الحال سوف تتخلصين من الشلل والجمود . تتخلصين من تلك الأصنام الجامدة المشلولة .

أتركى محبة المال التى هى بالحقيقة أصل لكل الشرور ١ تى ٦ : ١٠ . وهكذا باسم يسوع الناصرى قومى . « باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش» أع ٣ : ٦ .

يقول الكتاب : « ثم بعد هذه الكلمات أمسكه بيده اليمنى وأقامه » أع ٣ : ٧ .

ما كانت الكنيسة لتستطيع ان تعمل عملا مستقيماً يؤدى إلى الفضيلة إن لم يكن الرسل القديسون بتعاليمهم قد شددوا قوتها البينية الطبيعيـــة وأصلحوها بما حبوها من الأيدى . يقول : « ففى الحال تشددت رجلاه وكعباه » أع ٣ : ٧ .

قامت أقدامها على صخرة الإيمان فثبتت خطواتها كما يقول داود النبى « وأصعدنى من جب الهلاك من طين الحمأة وأقام على صخرة رجلى . ثبت خطواتى » مز ٤٠ : ٢ .

لم تثبت خطواتها فحسب بل كانت أيضاً تقفز متهللة بالأفكار الإلهية ودخلت مع الرسل إلى الهيـــكل عاكفة على التأملات العميقة المقدســـة التى لا يعرفها الكثيرون . منذ ذلك الحين والأمر بالعكس فالكنيسة هى التى تتشبث بالرسل إذ يصعب عليها أن تبتعد أو تنفصل عنهم ، بدلا من أن يكون الرسل هم الذين يمسكون بها . . .

يقول الكتاب المقدس عن الرجل الأعرج الذى كان يرمز إلى الكنيسة التى انفصلت عن الأمم : « وبينما كان الرجـــل الأعرج الذى شفى متمسكا ببطرس ويوحنا تراكض إليهم جميع الشعب إلى الرواق الذى يقال له رواق سليمان وهم مندهشون » أع ٣ : ١١ .

كيف لا نعجب من المعجزة ؟ !

كيف تسير مع الرسل تلك التى كانت فيما مضى ملقاة محتاجة إلى من يقيمها ؟ !

وذلك انها امتلأت من غنى الحكمة والتأمل لأن هذه هى الفكرة المقصودة بباب سليمان الذى كتب عنه :

« وأعطى الله سليمان حكمة وفهماً كثيراً جداً ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطىء البحر . وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى الشرق وكل حكمة مصر . وكان أحكم من جميع الناس » ١ مل ٤ : ٢٩ - ٣١ .

فضلا عن ذلك فإن سليمان هذا كان يرمز مقدماً الى المسيح، سليمان الحقيق ، لأن كلمة سليمان معناها رجل السلام ، والمسيح هو سلامنـــا (أف ٢ : ١٤) ، كما يقول بولس الرسول : « وأما للمدعوين يهودا ويونانيين فبالمسيح قوة الله وحكمة الله » ١ كو ١ : ٢٤ .

« المدخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم » كو ٢ : ٣ .

فبعد أن كانت الكنيسة فيما مضى عاجزة عن السير أثرت وابتهجت بهذه الخيرات ، بسيرها مع الرسل . هذا ما نستطيع أن نراه فى بابنا [1] .

(١) باب الجبل .

أكان مستطاعا للوثنيين أن يصنعوا بفلسفتهم شيئاً عظيما كهذا فى بوابتهم الموقرة فى أثينا ؟ ! .

هل أقاموا مثل هذا الرجل الأعرج، أمام بصر وسمع الناس ؟

أبداً ، لأنه لم يكن بينهم الإله الواحد الوحيد الحقيق ، وأيضاً لم يكن لديهم الاستعداد والقوة ليقولوا كلمة مثل هذه :

« باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش » ١ ع ٣ : ٦ .

بعد أن سمعنا هذا التعليم ، يقول القديس ساويرس :

يبدو لى انكم لا تملون أبداً ، ومع ذلك فقد يحزن البعض انى بكلماتى أطلت فترة الصوم [1] . أما أنا فأقول مثل بولس الرسول : « لأنه أن كنت احزنتكم أنا . فمن هو الذى يفرحنى إلا الذى أحزنته » ٢ كو ٢ : ٢ .

هذا ما قصدت إليه بالضبط إذ أطلت المقال ، حتى ينتهى الجزء الأكبر من النهار ولا أكذب الكتاب المقدس الذى يقول :

« وصعد بطرس ويوحنا معاً إلى الهيكل فى ساعة الصلاة التاسعة » أع ٣ : ١ .

(١) المقصود بالصوم هنا هو صوم ذلك اليوم الذى ألقى فيه هذا المقال . ويبدو أن هذا المقال لم يعثر عليه إلا مختصراً .

الواقع أنهم كانوا يصعدون . أكانوا ينزلون ؟ !

يقول الأب القديس

أما أنت فتطلب منا أن نعظ بعكس ما نفعل وأن نقرر ونبين ما هو ضد الواقع .

ألا تعرف أن اليوم الحاضر يجعلنا نعد بأن نصوم ونصلى ونطعم المسيح الجائع الذى يقف باستمرار بالقرب من الأبواب المقدسة ؟

لماذا إذاً نترك جانباً ما يلهمنا به هذا اليوم ونهتم بما هو غريب عنه ؟ بالمأكولات والمائدة المليئة بالدسم ، ما لا يليق بالصوم .

متى تكون سامعاً هادئاً ومحباً لكلماتى ؟ لأنه إذا كنت فى أيام الأعياد تنتبه إلى الأطعمة وشراهة البطن ، وفى نفس الوقت الذى فيه تأتى إلى الكنيسة تتعجل العودة حالا إلى بيتك ، بينما تنظر إلى هذا اليوم كأنه سنة ، فتى أكلك ، قل لى ، أو متى تطعم روحك الجائعة ، طالما تتذمر دائماً وتلق باللائمة فى كل شىء .

إنى لا أعرف أن لكل عمل وقتاً مناسباً ويلزمنى ضرورة أن

أقول لمن فى العيد كيف يليق به أن يعيّد ، حتى يكون موضوع العيد موضوع تأمل بالنسبة له وحتى يتحدث بالأقوال المتعلقة بالعيد على المائدة .

لا ينبغى إذ يتلذذ بالأطعمة أن يسلم نفسه للأغانى والسكر والضحك الفاش فقد أمرنا الله فعلا أن نتهلل برعدة : « اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعدة » مز ٢ : ١١ .

كما أمرنا ألا تكون روحنا أبداً خالية من خوفه تعالى ومن ذكره ، بل تتمسك بهذه المشاعر وتضبط ذلك الاندفاع الذى يقود إلى الخطية .

أين رأيت قائداً فى المعركة يكتفى بالحديث أمام جنوده حول نظريات الاستعداد الحربى فى الوقت الذى يجب عليه فيه أن يحث الجنود على القتال ويخوض المعركة معهم قبل أن تحيق بهم الهزيمة ؟

أو أين رأيت مرشداً يعطى تدريبات رياضية بعد أن يكون البطل قد خسر إكليله ؟

أو أين رأيت من يلق خطبة عن العيد بعد العيد ؟

ان الذى أخذ على عاتقه أن يزيل الخطر الذى يتأتى من

الانغماس فى اللذات فقبل أن يحين العيد ، عليه أن يجهد نفسه بخصوص الكلمات والأفكار الإلهية لكى تطهرها مقدماً .

ثم يقول القديس ساويرس

هندى عمل كثير ، أقضى الليالى دون أن أنعس ، وروحى تذوب فى نفس الوقت مع جسدى ، أما أنت فربما تظن إنى أحاول إطراءك ، أو إنى مدين لك بالشكر لأنك تظهر صبراً إذ تظل ساعة تستمع إلىّ ! إنى لا أعير مثل هذا الإطراء إلتفاتاً ، إن كانت كلماتى لا تعود تؤدى إلى منفعة الروح فيشعر السامع أنه أخذ منها العون . لذلك أقوم بواجبى حتى ولو لم يكن هناك من يسمعنى . كما يقول بولس الرسول « فإنه إن كنت أفعل هذا طوعاً فلى أجر . ولكن إن كان كرهاً فقد استؤمنت على وكالة . فما هو أجرى إذاً وأنا أبشر أجعل إنجيل المسيح بلا نفقة حتى لم استعمل سلطانى فى الإنجيل » ١ كو ٩ : ١٧ - ١٨ .

إن جزائى ألا يوخزنى ضميرى فى هذا الأمر ، وإنى لقائل ما أمرت به : « أنا عبد بطال ، وما كنت أستطيع أن أفعله بحسب ضعفى فقد عملته . وانه يليق بالرجال الذين هم من قامة الرسل أن يقولوا : « عملنا ما كان يجب علينا » لو ١٧ : ١٠ ،

لكنى موقن إنى أنا نفسى لم أرفض جزءاً يسيراً من التزاماتى الجديدة.

ولا أقول ذلك لكى أتهمكم بالإهمال، حاشا! إنكم قد تنتقدوننى أيضاً بأنى لا أتكلم بترتيب وأنتم متفقون لتؤكدوا ان صوتى ليس كافياً بالنسبة لعدد السامعين الكبير، وفى ذلك أردف القديس قائلا: إنما أوردت ذلك بسبب ثلاثة أو أربعة افراد دأبهم أن يلوموا فى كل شىء وهم يتضجرون حسداً.

ونقرأ فى الكتاب المقدس: «ان الكنيسة تبنى وتسير فى خوف الرب وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر» أع ٩: ٣١، فما قلناه كاف لخذلانهم. ومع ذلك نعتبر نحن أنفسنا شعورنا نحوهم ونرجو أن يؤول ذلك إلى منفعتهم، بالنعمة ومحبة البشر التى ليسوع المسيح الإله العظيم مخلصنا الذى يليق به المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين».

✝ ✝ ✝